

سعيد: جهاد صامت

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد محي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة
1943

زياد

يعز على أن أنبش ذكريات ماضى انقضى وكله خير وعمل وجهاد، ونبش الذكريات من مصائب الأمور؛ وكثيرا ما تعمدت أن أتناسى عهدا بعته ألم وحسرة واسترجاع ولوعة وشقاء.

وبعض جهات الأمل تخلق في نفس الإنسان معنوية السعادة والهناء، وبعض جهات الأمل تخلق في الإنسان آيات بينات من دوائب العمل والنشاط، حتى إذا انهد ركن من هذه الجهات انقلبت بعض جوانب الإنسان إلى ما يشبه الأزمات النفسية التي هي دليل من دلائل الوفاء.

« وهكذا كان » فقيدنا السعيد « ولذا » يعد نبش ذلك الماضى من تجديد صدمات الدهر وخيانة الحظ؛ ولكن « أسرة المغرب » تريد أن تنبش هذا الماضى بدافع الوفاء، وإذا كان الوفاء يرخص هذا فما علينا إلا أن ننبشه معها؛ وتجديد الأمل في مثل هذه المناسبات من نعم النفوس المتألّة؛ وفي بعض الألم ما يشفي من الألم، كما يقول النفسانيون.

هذه سنة مرت بكاملها على وفاة سعيد، ولكن أصول جهاده ما تزال ماثلة للعيان.

ومن أيسر أعمال سعيد أنها تسير في حضرته وغيبته، وفي حياته تزدهر كما هي اليوم في مماته، وسر ذلك أنه ابتلى ببدء الجهاد الصامت، وهذا الداء مرحلة أولى من مراحل العظمة والخلود؛ لقد وضع رحمه الله برامج بعضها عرفه الناس وبعضها لم يعرفوه وسيعرفونه في يوم قريب أو بعيد؛ غير أنه ما تعود أن يملأ جوانب نفسه وجوانب أصدقائه القريين والبعيدين بمثل ما سبق؛ غالب الأعمال من لدن أغلب الناس، فهو في كل مرحلة من مراحل عمله يصمم في نفسه ويخلق العمل جنينا في فكرته، ثم يخرجها للناس في حلة قشبية لا يتقدمها طبل أو مزمار ولا جعجة تسفر عن غير طحين، قيل: إن سعيدا توفيق فيما بشره من أعمال، وكان يتوفيق فيما كان في عزمه أن يبشره من أعمال، ولكن قل من تحدث عن سر نجاحه في هذه الكتلة المتناسقة من الأعمال؛ ولو بحث الناس في ذلك لوجدوا سر هذا التوفيق فيما منحه سعيد من الدراية بقطع المراحل التي لا تمنح لغير الأوفياء، والأوفياء كثيرون في كل بلد وفي كل زمان؛ غير أن الذي يقدر له النجاح منهم هو من ابتلى ببدء الجهاد الصامت.

فأنت أمام حياة سعيد تجاه سلسلة من أدوار النضال ضد خمول النفس، وتجاه ثورة عنيفة كل العنف، قاسية كل القساوة، سريعة في منتهى السرعة؛ وهذه أمور من لوازم الانقلاب في الحياة؛ ولا مفر لكل عمل من هذا القبيل أن يتخذ لنفسه مظهرا كبيرا يبشر الناس أو يوهمهم على حسب همة صاحبه؛ وهذا المظهر هو الذي أخفاه سعيد عن الناس، ولم يتركه يظهر إلا ومعه عمله ومشروعه ونتيجته وغايته. وإخفاء المظهر في العمل حرب لاهواء النفس، وهو جزء من عبقرية العاملين؛ وعدم سبق المشروع بضجة الإعلان يعرب عن « جهاد صامت » كان حظ سعيد منه وفيما وعميما؛ وهو العامل الأول في تسيير الأعمال.

في حياة سعيد جوانب كثيرة، بعضها يتعلق بنفسيته المجردة وبعضها يتعلق بتصميمات أعماله، وكثير منها يتعلق بخدمة بلاده، وأقلها يتعلق بإعلاء شأن الصحافة في المغرب، وكلها

تستحق درسا في غير إيجاز؛ ليعرف الناس ما خفى عنهم من هذا العصامي الكبير؛ ولكن أحقها بالدرس وأجدرها بالتوفيق هو ما سميناه اليوم بـ « الجهاد الصامت » ، ومن أعظم هذه الفواجع أن يموت من يستعين بهذه الروح في عراكه ضد الجمود؛ وإن من أعظم النكبات أن تفقد الحياة نفسها فيمن اختاروا أساليب الاتجاه في شؤونها.

لقد شاهدت الناس سعيدا وهو يمشي في الطريق جادا في مشيته قد أطرق رأسه إلا لسلام أو كلام ، يقبض في غالب الأوقات على الجزء الأيسر من جبته الخفيفة ، يتسم كلما ارتأى له شيء يستحق الابتسام؛ ألا فليعلم الناس أن مشيته تلك وعلى هذه الصورة هي نفس وجهته في الحياة والحياة العامة أعني؛ وقل من التقى بسعيد في جانب من جوانب الشارع فأشبعه كلاما؛ وكذلك قل من كان يسمع منه تعليقا ضافيا عما يعتزم عليه من عمل صغير أو كبير، وتلك وسيلة من وسائل « الجهاد الصامت » ولو قدر لسعيد أن يطول عمره ولم يصادم في أعماله لرأي كثير من الناس كيف أن العزيمة ثبتت بأصولها وفروعها في بعض النفوس؛ ولو أراد الله أن يندهش الشباب من جديد في باب ذلك الصعاب وهند الحواجز لأبقى سعيد إلى ما بعد اليوم. ولو أراد الله أن يكفر الناس بكلمة « مستحيل » لبارك في عمر سعيد، ومن للإنسان بما يتمنى؟

والمقادير إن رمت لا تبالي أرؤسا تصيب أم أذنا

كما قال شاعر النيل.

على أن « أسرة المغرب » ستحافظ بدافع الوفاء على ربط حلقات العمل التي كانت تغمر جوانب من نفسية سعيد، وهو دين في ذمة كل واحد من أفرادها وبدا يتم ما كان في عزم الراحل الكريم.